

... ثم ارادت ان تجعل منه رجلا!

للدكتور محمد عوض محمد

لقد قضى الأمر ، وزوجت منه ! ...

فيا للعجب ! كيف ألم بالدهر هذا الحادث الخطير ، والشمس ما برحت في السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما زالت تدور حول محورها المائل المنحرف ، وتطوف من حول الشمس وتمعن في الطواف ؟ . والقمر ؟ أجل والقمر لم يزل ينتقل بين منازل المقدرة له من الأزل .. فكيف اذن نزل ذلك الخطب ؟

أ كبر الظن أن القمر المذكور هو سبب تلك النكبة . أجل هو وحده المسئول عن تلك الكارثة . فان ليلى قد التقت بأحمد من قبل مرارا ، في وضع النهار ، فلم تر فيه الا في حسن الصورة ، ولم تحس نحوه ميلا ولا حبا .. لكنها التقت به بعد ذلك على شاطئ النيل ، في ليلة يلعب فيها بدر التم ؛ فاذا القمر يوسوس في صدرها ، ويثير في فكرها الأوهام ، ويربها صورة ذلك الفتى ، وكأنها تمثال لكل ما يتوق اليه قلب المرأة التواق من سحر وجمال وشعر وأحلام أما صوته المتكسر الواهي ، فكان يرن في أذنيها كالموسيقى العذبة لكنها كانت من طراز موسيقى شوبرت الرقيقة ، لا موسيقى واغنر العنيفة القوية . ولقد ساورها الشك لحظة ، وأرادت أن تسأل نفسها : « أنى لرجل كامل الرجولة أن يكون في صوته كل هذه الرقة وهذا التكسر ؟ » لكن القمر لم يدعها طويلا تتلاعب بها الشكوك ، بل أوحى اليها بسرعة أن ذلك من أثر العشق الذي استحوز على أحمد ، ففرق من صوته وأكسبه كل هذا اللين والعذوبة والخور ! . وكان القمر في هذا كاذبا ؛ والحقيقة أن أحمد كان من ذلك الجنس الناعم الخائر الذي يبرأ منه الرجال والنساء على السواء .

فلم تنقض تلك الليلة المقمرة الساحرة حتى كان الحب مائلا قلب ليلى ؛ وقد جعل على عينها غشاوة لن يزيلها الا تعاقب الليل والنهار .

وهكذا تم النصر للقمر الماكر ! وباليات الزهرة كانت في السماء تلك الليلة ، اذن لحضت ليلى النصح ، وفتحت عينها لما هو محقق بها من الخطر ؛ لكن الزهرة لم تكن — يا للأسف ! — في السماء . وهل في الدهر سواها نصير للفتيات يرد عنهن الغوائل ، ويهديهن سواء السبيل ، ويأخذ بأيديهن كي لا يتردين في كل هوة مخيفة ؟ أما القمر

فنصير الفتيان ، وعلى الخصوص أولئك الفتيان الخائرون المتكسرون ، الذين يشبهونه بوجوههم المليحة الناعمة الشاحبة الخالية من كل قوة ونخوة .. ولم تك إلا أسابيع قلائل ، حتى زوجت منه وقضى الأمر ! والشمس ما برحت في السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما انفكت تدور حول محورها المائل المنحرف

ثم كان شهر العسل !

فأما الشهر فلم يكن كشهري وشهري أنها القارىء ، مؤلفا من ثلاثين يوما ، أو واحد وثلاثين يوما على أكبر تقدير . بل لقد استطاع الحب — وهو ذلك الساحر البارع — أن يمسه بعصاه ، فاذا هو يمتد من أول مايو الى آخر أكتوبر ؛ وإن يوما عند الحب كآلف يوم مما تعدون !

هذا ما كان من أمر الشهر ! وأما ما كان من أمر العسل فقد كان أريأ شيا ، وشهدا جنيا ، وحلاوة وعذوبة ليس وراءهما حلاوة ولا عذوبة ، وخمرة سائغة ، لم تتناولها بالتحريم شرائع السماء ، ولا قوانين الولايات المتحدة .

وظلا غارقين في ذلك البحر الخضم ، فلم تنتبه ليلى ، ولم تشأ أن تنتبه . وان كان في الغرق كل هذه السعادة والنعم ، فالويل لمن يفكر في انقاذ الغرقى !

وسيقول الناس : ان الحب يعمى ويصم ، وأنا أربأ بالقارىء أن يكون ممن يرون هذا الرأي ، فان العمى والصمم هما — فيما يقال — غاهتان ، وما أبعد الحب — وأبعد به ! — أن يكون مسببا للآفات والعاهات ! وإنما الصواب أن نقول ان الحب يضع على العينين عصابة من ذلك الطراز الجميل الذي يعصبون به عيني الثور حين يدور بالساقية ، فلا يزال يدور ثم يدور ، وهو بحسب نفسه قد طاف حول الكرة الأرضية .

وكذلك قد صور الحب ليلي أنها قد طافت العالم وأحرزت الدنيا بأسرها .

كل هذا ، والشمس ما برحت في السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض ما زالت تدور حول محورها المائل المنحرف

ثم لم يكن بد من أن يجيء اليوم الهائل المحتوم ؛ بعد أن ول الربيع ، وذهب في اثره الصيف ، وأتى بعدهما الخريف الذي لا يدارى ولا يمارى ، بل يظهر الحقيقة عارية مجردة جافة .

وفي يوم من أيام الخريف بسط الدهر يديه القويتين فجأة ،
وكشف الغطاء عن عيني ليلى ! .

نظرت ، فلم تصدق الرؤيا التي رآنها ... أجل وقد حسبتها رؤيا
مما يراه النائم ، الغارق في نومه . وكبر مقتاً عندها أن يكون هذا
مما تراه هي .. حتى في الحلم ... فجعلت تغمض عينيها ، ثم تفتحهما ،
مرارا ... لا ! انها ليست نائمة ، وهذا الذي تراه ليس حلماً ! ..
هو الحقيقة اذن ؟ . أجل وليس بجديها أن نحاول انكارها ..
صحيح اذن انها رضية أحمد هذا زوجا ، وأنه — ياللهول ! —
قد شغفها حبا فلم تكترث للناسخين والعدال .. رضية بذلك الكائن
المسوخ زوجا ، ليكون لها في الحياة رفيقا وعدة وذخرا . ذلك
المخلوق اللين المتكسر الخائر ، الذي ليس في قلبه همة ، ولا في رأسه
نخوة ، ولا مطمح له في الحياة ولا مأرب ، ولا عزمة له ولا إرادة !
ان الناس تصفه ظلما بأنه يشبه النساء ، وهذا كذب ، بل كفر ، بل
شر من الكفر ! . ان النساء أجل واكرم من أن ينتسب اليهن هذا
المخلوق ، هذا اللين المستخذي ، هذا الناعم الخائر ، هذا التافه
ذو الوجه (الكارت بوستال) . ذوالصورة السنائية الفاترة ، الخالية
من كل روح ومعنى .

أبمثل هذا الشيء تجن هي ؟ .. ليلى ؟ ليلى التي طالما جشم أبوها
نفسه وجشمها كل غناء وبلاء في سبيل تأديتها وتثقيفها ، لا يألو في
ذلك جهدا ولا مالا ولا وسيلة ! ألم يهيبها لها الأسباب لتتلقى العلم
في مصر على خير أساتذة مصر ، وفي إنجلترا في خير معاهد إنجلترا
وأعظمها جميعا ؟ .. أجل وما أشد سرورها يوم الفت نفسها ،
وهي بنت النيل ، في نيونهام كولدج تتلقى العلم وهي وبنات النبلاء جنبا
لجنب ؛ وكان نجمها الساطع محلقا في السماء لا يعلو عليه نجم ، ولها
بين صواحبها منزلة ومكانة وشهرة قد جاوزت نيونهام الى جميع دور
العلم بكامبردج ؛ وملاء الأعجاب بليلي المصرية صدور الشباب من
الطلبة ، والشيب من الاساتذة المحنكين .. ولقد طالما حاول
الكثير من كرام الفتيان ان يتقرب اليها ، فكانت تردده في حزم
ولطف وتواضع لم يزدها الا سموا وتقديرا ..

ثم تلك الرسالة البديعة التي كتبها عن الفلسفة العربية ؛ فكانت
نصرا باهرا ، وتاجا براقا لتلك السنين الخمس ، التي قضتها في جد
ودأب لاتعرف الدعة ولا الهوادة .

وهبطت مصر ، تزدهم في صدرها الآمال ، وتريد أن تتبوأ
مكانها بين قومها لكي تعمل على نصرهم وسؤددهم ، بكل ما أوتيت
من قوة وهمة ؛ ولم تجد بأسا في أن يكون لها في جهادها العنيف رفيق

يشد أزرها ويقوى ساعدها . ولم تكن ليلى من النساء اللواتي أغلقت
قلوبهن دون الحب برتاج غليظ ... ولكن شأت المقادير العجيبة
أن يكون رفيقها الذي تختاره وترتضيه هو ذلك المخلوق الناعم الخائر
ذلك اللين المستخذي ، ذا الوجه الكارت بوستال
والشمس مازالت في السماء تجرى لمستقر لها ، والأرض
ما برحت تدور حول محورها المائل المنحرف .

وجلس ليلى وهي تطل من نافذتها ، تنظر الى النيل اذ يندفع
تياره من الجنوب الى الشمال ، وإلى أشجار الصفصاف ، وقد
تدلت غصونها الى الماء كأنها عبرات تسيل ؛ وإلى السحب الحمراء
قد خلفها الغروب . ومن دونها الأهرام قائمة على الأفق ، وإلى
الزهرة في السماء تتألق وترقص بين السحاب .

أدركت ليلى أنها أخطأت .. أجل أخطأت برغم كل ما وعاه
صدرها من علم وأدب وحكمة وفلسفة ، وارتكاب الخطأ حق طبيعي
لكل رجل ، بل ولكل امرأة أيضا .. الحيوانات لا تخطئ ، لأنها
تصدر في أعمالها عن الغريزة ، والغريزة معصومة عن الزلل . أما
أبناء آدم وبناته فيصدرون عن العقل ، وهو كثير العثرات .

اذن ليس بيدع أن تكون ليلى قد ارتكبت خطأ ، وليس بعد
الخطأ الا محاولة الاصلاح .. لكن كيف السبيل الى اصلاح هذا
الخطأ ؟ ليست الأمراض سواء في قبولها للعلاج ، وليست الأخطاء
سواء في قبولها للاصلاح .

حاولت ليلى أن تلمس الالهام مما تعلمه من حكمة وفلسفة .
ولكنها لم تلبث أن تبينت أن ليس هذا بمجديها نفعاً . ان للفلاسفة
في هذا الموضوع الخطير اراء قلبا تسمن أو تغنى ...

ان (نيتشه) الذي تحبه لم يتزوج ، و (كانت) العظيم عاش
عمره الطويل لم يتزوج ، وابوالعلاء لم يكن على أحد ، و (شوبنهاور)
كثيرا ما كان يؤثر صحة الكلاب على الخلان والاصدقاء ؛
وسقراط وافلاطون ؟ ... أولى بها ألا تفكر الآن في سقراط
وافلاطون ... لا .. ليس بنافعها أن ترجع الى القدماء ، كي يحلوا
لها مشكلتها الحديثة .. لا بد لها ان تركز الى نفسها وأن تعتمد على
فلسفتها هي ..

أجل وان لها في هذا الامر لفلسفة خاصة ، ورأيا ستحاول
انفاذه : انها سوف تصلح أمر أحمد ، وسوف تقوم معوجه ،
وسوف تجعل منه رجلا ... هذا المرام البعيد ، الذي يراه الناس
محالا ، كانت تحس في اعماق صدرها أنه ليس محال . أتراها

وفقت الى العثور على ذلك الحجر العزيز : حجر الفلاسفة فأمست
قادرة على أن تحيل الخسيس نفيسا ، والدنيء رفيعا ؟

كلا ! ان ليلى لن تحاول أن تنال بغيتها عن طريق المعجزات ؛
بل لقد رأت في أمر زوجها رأيا ، حسبه رأيا سديدا ، وكان وليد
تدبير طويل ، وتفكير عميق .. رأت أن أحمد تعوزه الرجولة ،
في مظهره ومخبره ، في جسده وفي روحه ، في حركاته وتفكيره .
وقد علمت أن ليس اصلاح الروح بالشئ اليسير ؛ لكنها تستطيع
— على الأقل — أن تكسبه مظهر الرجال . فل تأمره اذن — وهولها
طبع ذلول — أن يلبس الخشن من الثياب ؛ وأن ينعل الخشن
من الأحذية ؛ وأن ينطلق الى ضيعة ايها فيقيم هنالك شهرين
أو ثلاثة أشهر ؛ يعمل في حقولها كل يوم ، حارثا وزارعا وحاصدا ،
وعليه أن يرسل لحيته وشاربه حتى يغطي الشعر وجهه ... ثم يعود
اليها بعد ذلك ، وقد لبس حلة الرجولة سابغة شاملة ؛ فمن يد خشنة
الملبس ، الى ذراع قوية متينة ؛ الى وجه قد لوحته الشمس يكسوه
شارب طويل ولحية مرسله . أما صوته الناعم الفاتر ، فلا بد أن
يكسب شيئا من الخشونة من كثرة نداءه للثيرة ، وصياحه خلف
الحارث

وكانت ليلى تعلم أن هذه كلها ظواهر ، ليس فيها نفع ولا غناء ،
ولكنها كانت مؤمنة بان اصلاح العرض سيفضي الى اصلاح الجوهر ،
واصلاح الاناء وسيلة لاصلاح الشراب ؛ وأن أحمد لا يلبث ان
يكسب مظهر الرجولة ، حتى تتسرب بعد ذلك الى لحمه ودمه بفضل
ما بين الروح والجسد من رباط متين .

وأحسبها قد اقتبست هذا الرأي من بعض مدارسته من فلسفة
وحكمة ؛ لكنها كانت أشد ايمانا به من الحكماء الذين قالوا به . وما
هي الا أيام قلائل حتى مضت في تنفيذه . فانطلق أحمد الى الريف
وبقيت ليلى وحدها الليالي والأيام ترقب دورة الفلك ؛
والشمس ما برحت في السماء تجري لمستقرها ، والأرض ما فتئت
تدور حول محورها المائل المنحرف ...

وفي مساء يوم عبوس متجه من أيام أمشير ؛ تلبدت السماء
بسحاب أسود قائم ، وكان يعدو من المغرب الى المشرق ؛ طبقات
بعضها فوق بعض ؛ تحملها في السماء ريح عاصف .. وعلى الأرض
زعزع نكباء تثير الموج على صفحات النيل ، ونهر جذوع
الصفصاف هزا غنيا ، وقد ثارت الزوابع لتحمل العثير المطار الى كل
عين وكل انف .. ومشت ليلى نحو النافذة فأغلقتها في بطة شديد

وحزن شديد ، مطأطئة رأسها في كآبة وكد . ثم سقطت على سرير
ممدود وجعلت تسفك العبرات وتعول بالبكاء .. بصوت لولا دوى
الريح لأسمع من بالدار . وما أشد حاجتها في ذلك المساء الى
الوحدة والى البعد عن الناس والى البكاء تطفئ به ذلك الجحيم
المستعر في صدرها وفي أحشائها !

مسكينة ليلى ! ان فلسفتها قد خابت ، ونجربتها قد فشلت !
وكل هذا التقدير والتدبير والسعى والاحتيال لم يصادف الا
حبوطا ألبها ، وخيبة قاتلة . ان الداء كان عضالا ، والسم قد سرى
الى الرأس والأوصال ، والعرق والعصب ، فاستفحل واستمكن ،
ولات حين علاج ، ولات حين شفاء ...

واختلط الحزن في قلبها ، والح عليها من كل جانب ، فليس
يدري أى خطيبها أشد وأقرب : فشل تلك التجربة وذلك الرأي
السديد الذي حسبه زبدة الحكمة وخلاصة الفلسفة ، أم كارتها
في هذا المخلوق الذي بات حننا عليها أن ترضاه ، وهو دون
الرضى ، وأن تعتمد عليه في الحياة ، وهو ذلك الرطب العاجز
المائع

لقد فشل تدبيرها فشلا ذريعا ، فان المسكين لم يطق الريف ،
ولم يلبث أن أسأمه وأضناه ، فقصى أيامه هناك بين سقم ، وبين الافاقة
من سقم ، حتى أشفقت عليه ليلى وأذنت له أن يعود .. أما ذلك الشعر
القليل الذي نبت على خديه وشفثيه ، فلم يك الا غشام رقيقا نافها ، لم
يقربه من الرجولة قيد شعرة .

مسكينة ليلى ! ان الرزء الذي رزته لشديد . ولم يبق لها من
وسيلة تتوسل بها سوى الصبر . والصبر أوهى الوسائل .. وما
أشد حاجتها لأن يكون لديها من هذه الوسيلة الواهية ذخيرة لاتنفد ،
ذخيرة تكفيها العمر كله ... لا بد أن يكون في العالم شهداء يحملون
الارزاء ، فلا رأى اليوم الا أن تكون كاحدهم . ولئن كان رزؤها
هذا من صنع يدها ، فما أحقها بحمله والاضطلاع به .. مدى
الحياة !

لقد سخرت منها المقادير ، حين أرنها الحياة حلما زاهيا ،
وزهرا نضيرا ، واليوم وقد آن للزهرا أن يحول ثمرا ، وللدوحة أن
تؤتي أكلها ، اذا الاقدار تسلط عليها هذا السقم العضال يذوبها ويفنيها
لم يبق لها بد اذن من ان تودع هذه الأحلام جوف الثرى ، في
غبر رحمة ولا هواة ، وتستقبل هذا العهد الجديد ، عهد الشهداء
الصابرين في قوة وجداد :

لاجرم ان الاتمهال الى تلك الحال ليس بالشئ اليسير ، ولكن